من أعلام الاصلاح في الحضنة "الشيخ عيسى يحياوي"

الدكتور / منير صغيري
المدرسة العليا للأساتذة ـ العلمة

مقدمة:

لقد كان الإصلاح من ابرز عوامل نهضة الجزائر ويقظتها، ذلك انه يجنح إلى التغيير الهادئ من خلال إعداد نشء يؤمن بالعمل، بعدا عن التواكل والاعتماد على القدرات الخارقة للأولياء، وما تبعها من أباطيل وخرافات كانت بمثابة مسكنات، بينما ويشجعها الاستعمار الفرنسي في سياسته الثقافية في الجزائر، وقد كانت منطقة الحضنة على غرار مناطق الوطن عرضه لمثل هذه الظروف –الفكرية العقدية-، من هذا المنطلق ظهر على أرضها رجال حملوا راية التربية والإصلاح، ومحاربة كل مظاهر التخلف الناجم عن تحريف العقائد وبث الأباطيل ومن رجال الحضنة "الشيخ عيسى يحياوي"، الذي يعد قطبًا من أقطاب الإصلاح في الحضنة وبريكة، وعلمًا من أعلام جمعية العلماء المسلمين، وفي مداخلتنا هذه سنسلط الضوء على جوانب من حياته النضالية الإصلاحية بما هو متاح لدينا من مادة علمية.

مولده ونشأته: هو الشيخ عيسى يحياوي بن مُحَمَّد بن عمر، أمه بُريكَة من مواليد 1909م[1] بعين الخضرة[2] وينتهي نسبه إلى آل بيت النبي "ﷺ"عن طريق الأدارسة من فرع الحسن ابن علي رضي الله

(1) استنادا إلى شهادة ميلاد الشيخ فإنه ولد سنة 1909؛ انظر في الملاحق.

(2) هي عين الكلبة قديما تقع في الركن الشرقي من ولاية مسيلة يحدها شرقا دائرة بريكة وغربا وأولاد عدي لقبالة وشمالا بلدية برهوم وجنوبا بلدية المسيف.

عنهما فهو بذلك من الأشراف[1] نشأ الشيخ في وسط ريفي محافظ متشبع بالثقافة الإسلامية العربية، من عائلة عريقة ذات أصول شريفية جل أفرادها متعلمون. بدأ الشيخ تعلمه كسائر أقرانه آنذاك؛ في الكتاب فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، وقد أولاه والده على غرار أبناءه عناية خاصة فكان ينتقي له أحسن المعلمين وأحسن الزوايا، فتلقى تعليمه الأول بعين الخضراء على يد الشيخ محمد بن المبارك ميهوبي والشيخ الساسي بوراية ثم انتقل إلى زاوية "سيدي السعيد" ودرس على يد شيخها سيدي عيسى بمنطقة مقرة[2]، وليستزيد في العلم انتقل بعد ذلك إلى زاوية "علي بن عمر" بمنطقة طولقة ببسكرة، حيث تلقى من علمائها - سي محمد نكوري ومحمد بن بلقاسم – فحصل ما تيسر له من دروس الوعظ والإرشاد وحفظ المتون العلمية كالأجرومية و الرحبية والألفية و الميارة. واستمر الشيخ في تحصيله العلمي إلى غاية ميلا جمعية العلماء المسلمين سنة 1931م ،حيث انتقل إلى الجامع الأخضر بقسنطينة[3] لينهل من معين الجمعية، وبعد تخرجه مارس الإصلاح في عديد المناطق الشرقية، توفي يوم الاثنين 29 جوان 1955م، ودفن بمقبرة بريكة.

- **نشاطه الإصلاحي:** يعتبر الشيخ عيسى يحياوي من أعلام الإصلاح في منطقة بريكة والحضنة، نهج طريق جمعية العلماء المسلمين في التغير القائم على التربية والتغيير الهادئ، وكانت بداية الشيخ مع الجمعية في "الجامع الأخضر" بقسنطينة، حيث زاول تعليمه العالي على يد شيوخها وعلى رأسهم الشيخ بن باديس وغيره من المشايخ وتشتمل الدروس التي تلقاها الشيخ عيسى يحياوي طوال فترة دراسته في الجمعية على دروس التفسير والحديث و الفقه و الفرائض و العقائد و المواعظ والتجويد والأصول والمنطق والنحو والصرف والبلاغة والأدب والمحفوظات والمطالعات ودراسة الإنشاء والحساب والجغرافيا والتاريخ. واعتمد في ذلك على أمهات المصادر المدروسة:(أقرب المسالك ،الموطأ، متن ابن عاشر ،البزدوي ،المفتاح ، التنقيع ، الأجرومية ، اللامية ، الجوهر المكنون ،من ديوان الحماسة ،من ديوان المتنبي ، مقدمة ابن خلدون[4]

أنهى الشيخ عيسى يحياوي دروسه العلمية بالجامع الأخضر بقسنطينة في غرة ربيع الثاني 1354هـ الموافق ل03جويلية1935م، ضمن الدفعة التي سماها بن باديس "مجموعة التسعد"، ليصبح الشيخ عيسى

(1) ينتهي نسبه إلى الأدارسة الأشراف على حسب شجرة النسب الموجودة عند بن الشيخ، عبد السلام.

(2) زاوية سيدي السعيد من أهم زوايا مقرة في ذالك الوقت وكان شيخها سيدي عيسى يعد من أولياء الصالحين وخرجت الزاوية الكثير من حفاظ القران والعلم الشرعي .

(3) الجامع الأخضر مسجد من أهم مساجد قسنطينة الذي يعود الفضل في تأسيسه إلى الباي الحسين بن حسين الملقب "أبو حنك " سنة 1156هـ

(4) عبد الحميد ابن باديس: أثار الإمام ابن باديس ، تحقيق وجمع عبد الرحمان شيبان ، ط1 ، مج4 ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ص100

يحياوي من ابرز معلمي الجمعية في عدة مناطق[1].لقد ارتكزت جهود الشيخ يحياوي على الإصلاح الديني والاجتماعي، من خلال بث منبهات لشعب كان يتخبط في غيابات الجهل وما صحب ذلك من جمود وتخلف، فكان الشيخ عيسى يحياوي منذ أول يوم تخرج فيه من جمعية العلماء المسلمين في 1935م وهو يتنقل عبر التراب الوطني قاصدا النوادي و المدارس و المساجد، لنشر الوعي الإصلاحي وتصحيح المفاهيم والعقائد المنحرفة ومحاربة البدع والخرافات المنتشرة وتشير السيدة "زبيدة دامة" أحد تلاميذه أنّه كان يحذرهم من مغبة البدع والخرافات،وكان كثيرا ما يعلمهم الأناشيد الجهادية[8]وكان الشيخ من مجموعة العرفاء الذين عينتهم الجمعية-جمعية العلماء المسلمين- للتعليم والإصلاح لما تميز به من نشاط وعبقرية وجرأة وحماس فياض فلقّبه الشيخ بن باديس "بمُهر الحضنة". عيين الشيخ عيسى يحياوي في بادئ الأمر في بلاد القبائل تحديدا في سيدي عيش التي عمل بها إمامًا وخطيبًا ومديرًا لمدرستها. ثم انتقل إلى خنشلة التي قضى بها ثلاث سنوات مديرا لمدرستها وإماما لمسجدها ثم إلى المسجد العتيق ببريكة ذلك أن "موسى زقاق"الذي كان مشرفا على شعبة جمعية العلماء بمنطقة بريكة، في أيامه الأخيرة لما اشتد عليه المرض جمع بعض أعضاء الشعبة وأوصاهم بإحضار الشيخ عيسى يحياوي إلى بريكة قائلا:"لن يصلح لمدينة بريكة إلا الشيخ عيسى يحياوي "، ثم إلى مشونش سنة 1949م ولبث فيها قرابة سنتين.

ومن تلاميذ الشيخ عيسى يحياوي في منطقة بريكة: الأحياء منهم: مُحَمَّد قادري ، مُحَمَّد الخذير واشم ، موسى عدنان، مُحَمَّد عزيل ، كحلة بلقاسم من ليشانة ، كحلة أحمد ،نجاتي قدور ، سلالي العربي ، سلالي مسعود ، فرحات مُحَمَّد البشير ، فرحات مُحَمَّد السعيد، فرحات عبد المالك ،دامة زبيدة ، زمور دباش، الأموات منهم : الشهيدان همة عون ومسعود فرج، بعطوش بالقاسم ،قادري العربي ، حارك عبد الله ، مُحَمَّد الطيب ، مُحَمَّد الزين فرحات.ومن تلاميذه في مشونش خليفة بن محمود ، السعيد المقراني بن صالح ، مُحَمَّد بن عمار ، عبد السلام يحياوي بن عيسى ، إبراهيم بكي بن عبد السلام ، عمران مقران بن مُحَمَّد ، البشير بن الطاهر ، علي مشيش بن التواتي ، ميهوب نجاحي بن الطيب ، مُحَمَّد الصالح يحياوي بن عيسى ، عبد الله يحياوي بن عمر ، مُحَمَّد يحياوي بن عمر ، عبد القادر يحياوي بن عبد الله وغيرهم، بلقاسم زوالي البشير ، مُحَمَّد فطاوي بن الطيب،بلقاسم عباس بن مُحَمَّد ، أحمد بن مُحَمَّد بن الشريف ، السعيد مزردي بن البشير ،

(1) عبد الحميد بن باديس: مصدر نفسه ، مج4 ، ص 98 .

(4) مقابلة اجريتها الطالبة ايمان داودي (استاذة التعليم القرآني بالمعهد الاسلامي-ولاية باتنة) مع السيدة زبيدة دامة تلميذة الشيخ يحياوي يوم 01 سبتمبر2015 على الساعه 15:00

مُحَمَّد منصوري بن صالح ، عبد الحميد ميموني بن عمر، عبد العزيز ميساوي بن الطيب ، بلقاسم قرقب بن عمار [1].

وقد ركز الشيخ على إصلاح الشباب الذين كان يرى فيهم ذخر الجزائر للسنون القادمة فكتب في البصائر "نصيحتي إلى إخواني المعلّمين" بأن تتعهدوا أبناءها بالعناية و الرعاية و التربية و التهذيب،حتى تخرجوا لأمتكم شبابا حيا،يضارع شباب الأمم المتربعة على أريكة المجد،شبابا يشعر بوجوده و يذود عن عرينه بسلاحه،ولا سلاح كالعلم،شبابا متحفزًا يغتصب الفرص من يد الزمن قصرا بلا ضعف ولا وهن،شبابا يسير مع القافلة البشرية سيرا موافقا إلى الأمام شبرا بشبر وذراع بذراعا،شباب لا يتأخر ولا يتقهقر بل يزأر ويتمر،شبابا يدافع عن حقه ولا يبالي بخصمه،شبابا متسلحا بأسلحة العصر،يدخل معترك الحياة آمنا من العثار،عارفا كيد الأشرار،شبابا ينظر للمستقبل نظرة أمل،وللماضي نظرة ألم،فذلك هو ضالتنا المنشودة،وذلك هو الشباب المنتظر و الكنز المدخر[9]. ومن أبرز نشاطاته الاجتماعية أنه كان يقوم بعملية الصلح وحل المشاكل و فض النزاعات إذ كان يستنجد به لحلّها في أغلب الأماكن التي يعرف فيها، حتى خارج تراب الولاية وكان الشيخ ضليعا في علم الفرائض، ومما يميّز جلسات الصلح التي كان يعقدها أنه يضفي عليها نوعا من الحيويّة، إذ كثيرا ما يطعم الجلسة بقصص ونوادر مما لا يتنافى مع الشرع و تساعد على فك التّشنج بين المتخاصمين.

وحضي الشيخ بمكانة عالية و جلالة قدر واحترام وتقدير من قبل أعضاء جمعية العلماء المسلمين ، فكان قد شرّفه البشير الإبراهيمي بزيارته إلى بريكة ومكث عنده، مما أفضى سعادة غامرة على الشيخ عيسى يحياوي فألقى كلمة بالمناسبة ليستقبل بها الشيخ البشير الإبراهيمي ومن الكلمة التي ألقاها:"الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أجلّ المرسلين سيدنا مُحَمَّد الذي جاء بشريعة سمحة بلسان عربي مبين وعلى آله وأصحابه الغرّ الميامين حماة الدين الذين اشتد بهم عضده وقوي ساعده ، أيها الآباء و أيها الإخوان:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته بقدر ما أعترضكم في طريق نشر الإصلاح من أهوال فما ضعفتم وما استكنتم، ولكنكم صمدتم صمود الجبال الرواسي أمام الأعاصير ففزتم وانتصرتم،بل كنتم كالقنابل المتفجرة على رؤوس الجاحدين والجامدين.أيها الإخوان الذين أمت كتائبهم عاصمة القطر الجزائري المسلمة الخالدة، وتراصت جموعهم الحاشدة في دار الأمة يحدوها حادي الإيمان قدمتم خير مقدم، ونزلتم خير منزل بعد المساجد الثلاث التي تشد إليها الرحال وبيوت الله الحرة، وستكون كلّها حرّة إن شاء الله والفضل في هذا

كله لجمعية العلماء المحترمة التي أنتم جندها وحصنها ودرعها،إذا جد الجد وادلهم الخطب وتنكر الأخ لأخيه، إن جمعية العلماء جاءت بها العناية الإلهية على الوطن المفدى التي كانت سدد الله خطاها،وبلغها أقصى مناها كالسيل الجارف للأباطيل و الخرافات.....[10]"

وقد كان الشيخ عيسى بحياوي حسب تأكيد أولاده ومن عايشوه متابعا من طرف عيون فرنسا وجواسيسها الذين كانوا يرصدونه أثناء إلقاء دروسه، نظرا لفكره الإصلاحي الجهادي ومع ذلك فقد حرص أن ينفث في روع طلبته الحس الجهادي بطريقة لينة هادئة، ليعدهم إلى اجل مسمى، لقد كان دائما يعلم تلاميذه و طلبته الأناشيد الوطنية كأنشودة:دعا الحق فامضوا وشقوا الزحام..أنشودة :نحن الشباب لنا الغداه...،و يأمرهم بإخفاء الكراريس تحت ملابسهم كلما قام الحاكم بزيارة إلى المدينة أو إلى المسجد.

وألقى الشيخ عيسى بحياوي درسا يتعلق بالقضية الفلسطينية فانتقد سياسة الاستعمار،فنقل الوشاة الخبر إلى الحاكم الذي قام باستدعائه ليستجلي الأمر فأجابه برباطة جأش قائلا:إن ما قلته عن بني إسرائيل ورد في القرءان الكريم سأقوله ولا أكتمه،ضف إلى ذلك أن ما قلته عنهم تعرفونه أنتم في حد ذاتكم ، فلم يستطع الحاكم مواجهته بشيء آخر،واعتذر له عن التعب و الحرج الذي سبب له.واستدعى الشيخ عيسى بحياوي ذات مرة من طرف الحاكم الفرنسي لتأدية صلاة الجنازة على أحد الجزائريين،الحاملين للجنسية الفرنسية ،فلم يلب الدعوة فجاءه الحاكم إلى المسجد العتيق و أخذ يفك أقفال حذائه قصد الدخول إلى المسجد،إلا أن الشيخ عيسى بحياوي طلب منه دخول المسجد بحذائه،فأثار ذلك استنكار المصلين و دهشتهم مما جعلهم يستفسرون بعد خروج الحاكم عن ذلك السلوك المخل بحرمة المسجد؟ فأجابهم بأن حذاءه أنظف من قدميه لأنهما تخرجان العرق و الروائح وروائح ما يأكل ويشرب من المحرمات، ولذلك فالمسجد يتنجس بقدميه أكثر مما يتنجس بحذائه وأنا اخترت أخف الضررين[11].

- نماذج من مقالاته الإصلاحية وخطبه:

1- نصيحتي إلى إخواني المعلمين

« إخواني إن مهنة التعليم من أصعب المهن و أشقى لأنها تنهك الروح و تفني العقل و لا يعزب عنكم أنكم من بناة الأمم فاستسهلوا كل صعب يعترضكم في الطريق وأشعروا أنفسكم أن حياة الشعوب لا تأتي

(11)مقابلة اجريتها الطالبة داودي ايمان (استاذة التعليم القرآني، المعهد الاسلامي باتنة) مع عبد السلام بن عسى بحياوي، يوم السبت 26 سبتمبر 2015 على الساعه 15:00

عفوا بل لا بد لها من مقومات و مكونات منها تربية البنين والبنات،وأن الأمة قد دفعت إليكم بأبنائها و أفلاذ كبدها وعدة مستقبلها ورجال غدها،فكونوا عند ظنها بكم وذلك:بأن تتعهدوا أبنائها بالعناية و الرعاية و التربية و التهذيب،حتى تخرجوا لأمتكم شبابا حيا،يضارع شباب الأمم المتربعة على أريكة المجد،شبابا يشعر بوجوده و يذود عن عرينه بسلاحه،ولا سلاح كالعلم،شبابا متحفزًا يغتصب الفرص من يد الزمن قصرا بلا ضعف ولا وهن،شبابا يسير مع القافلة البشرية سيرا موافقا إلى الأمام شبرا بشبر وذراع بذراع،شبابا لا يتأخر ولا يتقهقر بل يزأر ويتمر،شبابا يدافع عن حقه ولا يبالي بخصمه،شبابا متسلحا بأسلحة العصر،يدخل معترك الحياة آمنا من العثار،عارفا كيد الأشرار،شبابا ينظر للمستقبل نظرة أمل،وللماضي نظرة ألم،فذلك هو ضالتنا المنشودة،وذلك هو الشباب المنتظر و الكنز المدخر.إخواني إن المعلم كالجندي فكما أن الجندي إذا لم تكن فيه كفاءة تحمل السلاح و خوض غمار الحرب فإنه يطرد من الجيش لأنه ليس من رجال الحرب بل هم ممن عناهم الشاعر بقوله:

خلق الله للحروب رجالا و رجالا لقصعة من ثريد

إن جمعية العلماء نعمة من نعم الله على هذا القطر ولو لم يكن من أياديها إلا معهد بن باديس فقط لكفاها فخرا مدى الدّهر،ولكن أياديها على العلم والدين و اللغة كثيرة لا ينكرها إلا لئيم عتلّ زنيم...))[1].

2- مقال للشّيخ عيسى بحيـــــاوي بمناسبة اختتام العلامة بن باديس تفسيره للقرآن الكريم

((باسم الله وحمده،وبالصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد رسوله وعبده،وعلى آله وأصحابه وجنده، الذين لم ترم الشكوك بنوازعها عقيدة إيمانهم ولم تحم بهوافيها في جو إيقانهم،رضي الله عنهم جزاء ما خدموا الإسلام و شادوا من صروحه،وكفاء ما درسوا القرءان حتى انتهوا إلى سره ولبابه وروحه ولله تلك العصابة المطهرة و الفئة المصطفاة المخيرة،التي لم تمنعها قلة العدد أن تملي على الدهر أمرها ونهيها ولم يقعد بها ضعف الحال ونقص المال عن أن تسعى لملك العالم سعيها. سادتي وإخواني الكرام:هؤلاء إخوانكم أبناء الجزائر الفتية النافضون لغبار الجهل و الكسل،وأبناؤكم المستعدون للحياة الحقيقية والعمل،والمستنكفون لأنفسهم ولكم أن يكونوا أو تكونوا في عداد السوائم والهمل،قد جدوا في طلب العلم حين علموا أن الحياة جد ، وكدوا في تذليل العقبات القائمة دونه لما اعتقدوا أن العلا تعب و كد و اغتنموا فرص الأيام حين واتت

(12) عيسى بحياوي:"نصيحتي على إخواني المعلمين"مجلة البصائر العدد61من السنةالثانية25 صفر1368هـ الموافق ل 27ديسمبر1948م ص03.

وأسعدت.مرشحين أنفسهم لأخذ راية العروبة باليمين ، وللقيام على تراث السلف من علم و خلق ودين،وهم يحمدون الله على أن وفق وسدد،ويشكرون قائدهم وأستاذهم على ما علم وأرشد،ويعترفون لهذا الجمهور الممثل للأمة كلها بما هوّن من الصعاب وعبّد، وبما أرفق به ناشئة العلم وأرفد ،وبما أغاث به صريخها وأنجد ،وبما حاطها به من رعاية وتعهد.فهذا الاحتفال الذي تشهدونه اليوم هو إعلان في الحقيقة لحمد الله و شكر الأستاذ وشكركم ووقوف منا جميعا عند نهاية المرحة الأولى من نهضتنا نعدد آثارها ونحدث أخبارها ونشيد بذكر العاملين المخلصين فيها،ونتحاسب على مأتم من الأعمال ونتواصى بالحق والصبر إلى أن نبلغ الكمال.

أيها الإخوان:إن اللغة العربية هي لغة كتابنا،وكنز أدبائنا،والقاموس الجامع لأحسابنا و القائمة الحافظة لأنسابنا، ثم هي مع ذلك كله مفتاح أسرار ديننا العزيز،فهل يجمع بنا مع هذه الشوابك الروحية والتاريخية بيننا وبينها أن نعقها هذا العقوق الشائن الذي سبت به الأجيال البائدة منا،وسيكون وصمة أخزى للأجيال القائمة إذا لم نتدارك نحن أمرها ونشد أزرها ونهيئ للأجيال الآتية بعدها ما لم يهيئه لنا من قبلنا،إننا سنقوم بحقها مستوفى ونهض بعبئها مستكفى ونرد نمرها مستصفى ونورثها بيننا إن شاء الله سهلة الموارد و المصادر واضحة الرسوم و المعالم وإن كره المناوئون لها الصادون عن سبيلها..)